التصوف بين القبول والرفض

الدكتور: حسن محمد أحمد محمد

أستاذ مساعد

الملخص

التصوُّف هو منهج روحي، وأسلوب معروف بين الشعوب ذات الحضارات القديمة، ويمثل نزعة سلوكية وليست فرقة سياسية أو مذهبية، ومن الجائز عند الصوفية من المسلمين أن يكون الصوفي على أي مذهب من المذاهب؛ شيعيًا أو معتزليًا أو سنيًا[1]. وعلى الرغم مما اتصف به المنهج الصوفي العرفاني من تسامح وسعة أفق؛ إلا أن هناك الكثير من اللغط وعدم التوافق حول التصوف كفكرة أو مفهوم للعبادة والتنسك. وقد سعت الدراسة إلى إزالة سوء الفهم من جانب، والمزج والتوفيق بين النظرتين من جانب آخر.

وقد اهتم الباحث بتقسيم دراسته إلى مباحث ثلاثة، المبحث الأول: مفهوم التصوف. المبحث الثاني: نقد التصوف. المبحث الثالث: التصوف عند الغزالي.

المقدمة

. تمهيد:

التصوف هو واحدا من أقدم العلوم التي نشأت منذ القدم؛ فبالإضافة إلى الورع والتقوى الذي ساد بين المسلمين، نشأت بينهم، تحت ضغط المشاكل السياسية والاجتماعية في القرنين الأولين للهجرة، نزعة فكرية عقلية تبحث عن دراسة متعمقة لعلاقة متينة وصلة قوية تربط الفرد بالله؛ وذلك من خلال دراسة متأنية للقرآن العظيم، فساعد ذلك على نمو حركة التصوف الإسلامي. وهو شعور وإحساس لا يمكن وصفه وترجمته أو نقله إلى الآخر، يقول الكاتب الألماني بيتر هاندكة، في رد على سؤال طرح عليه، ... فإن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يمكن ترجمته إطلاقاً إلى أي لغة. أتساءل أحياناً كيف يتصرف الإيرانيون؟ القرآن مرتبط بالنغمة العربية، ومعناه مختلط تماماً مع إيقاعيته[2].

. موضوع الدراسة:

1/ الموسوعة العربية العالمية اصدار 2004م.

2/ مونااليزا فريحة – حوار – مجلة الدوحة القطرية – ص: 83 – العدد:47 سبتمبر 2011م.

ينحصر موضوع هذه الدراسة في المنهج الصوفي كممارسة تعبدية، اختلف عليها الناس اختلافًا كبيرًا، فهم بين متعصب لها ومتعصب ضدها؛ غير أن الناظر، بعين التأمل المتجردة من التحيز، ربما وجد أن الصواب قد جانب كلا الفريقين، إذ نلاحظ أن كلاهما قد صوب سهامه صوب سلوك الأفراد أو الجمعات، دون النظر إلى المنهج الصوفي كسلوك عرفاني يهدف إلى تحقيق الترقي الروحي والسمو بالوجدان الإنساني. والدراسة هذه تحاول أن تقرب وتجمع وجهتي النظر المتباعدتين عن بعضهما البعض.

. الأهمية:

يشكل التصوف، في الإسلام وفي ملل أخرى كثيرة، أهمية كبرى من حيث أنه سلوك روحي يهتم بتربية الذوق والحس لدى الفرد والجماعة معًا، يقول أبو يزيد البسطامي[1]:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُوْلُ: ذَكَرْتُ إِلْفِيْ * وَهَلْ أَنْسَى فَأَذْكُرُ مَا نَسِيْتُ؟
أَمُوْتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا * فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكِ وَكَمْ أَمُوْتُ
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ * فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلاَ رَوِيْتُ

. الأهداف: بيان الآتي:

- ❖ أن التصوف سلوك ومنهج تعبدي يهدف إلى بناء الإنسان روحيًا.
- ❖ تقوم فلسفة التصوف على الجمع بين جميع الطوائف دون تمييز.
- ❖ الحب والمشاعر العاطفية هي سمة أساسية في الصوفي السالك.

. المنهجية:

سيتبنى الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي؛ وذلك بغرض تحويل الفكرة النظرية في مجال البحث والدراسة إلى منهج عملي يقوم على أسس منهجية علمية يمكن تنفيذها وتحقيقها بعد تنزيلها لأرض الواقع المنظور والمحسوس.

المبحث الأول

1/ ابن عبيد الله: العود الهندي عن آمالي في ديوان الكندي، ص: 997.

مفهوم التصوف:

لقد أدت وجوه الشبه التي وجدت بين التصوف في الإسلام والتصوف في الديانات الأخرى إلى أن يدعي بعض المؤرخين من أمثال: دوزي (dozy) وكريمر (kremer) أن التصوف الإسلامي قد اقتبس بحذافيره من الديانة البوذية، وكذلك يرجع مركس (merx) أصول التصوف في الدين الإسلامي إلى الكنيسة السريانية، في حين أن نيكولسون (nichogson) يؤكد أنه قد نشأ من مصدر إسلامي صرف لا شائبة فيه على الإطلاق. وربما كانت النشأة الأولى للتصوف في العراق وبالتحديد في مدينة الكوفة هي التي ساقت أولئك النفر إلى القول بربط العلاقة بين التصوف الإسلامي والتصوف في الديانات الأخرى؛ وذلك لقربها من الفرس وأيضاً من الحضارة الهندية، ولكن الحقيقة هي أن الزهاد في تلك المنطقة قد أظهروا زهدهم في الحياة من خلال لبسهم للصوف الأبيض، وكان حاديهم وقائدهم في ذلك هو الحسن البصري[1].

إن التصوف يعد عاملاً مشتركاً بين البشر، وليس حكراً على ديانة بعينها أو فلسفة دون أخرى، ومن المؤكد أن التصوف أمر ضروري لكل الأديان بل ويشكل عنصر اتفاق بين الكثير من الجماعات الفكرية والفلسفية؛ لذلك فليس من المستغرب أن توجد معان مشتركة أو متقاربة في جميع العقائد الدينية السماوية أو المعتقدات الفكرية والفلسفية، ولا يعني ذلك التشابه أو التقارب أن التصوف في الإسلام قد نشأ بتأثير من الكنيسة السريانية أو الديانة البوذية.

والتصوف هو التربية الروحية والنفسية التي ترمي إلى التقرب إلى المولى، جل وعلا، والتصوف في حقيقته ما هو إلا إحساس وشعور داخلي بالرضا عن الله تعالى، ومن الصعب نقل هذا الشعور إلى الغير لذلك كان من الصعب تحديد تعريف جامع مانع لعلم التصوف. ولكنه على كل حال يبدو على صلة بمحاولة العقل البشري فهم حقائق الأشياء، والتمتع بالقرب من الخالق جل وعلا؛ إذن هو قسمان[2]:

1 / كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج : 4 ، ص : 54.

2 / عبد الله حسن رزق : قضايا التصوف الإسلامي ، ص :59 ، دار الفكر (الخرطوم) 1993م.

. **قسم فلسفي عقلي:** وهو يمثل الجانب النظري التأملي من التصوف.

. **قسم عملي**[1]: وهو الجانب الديني، وهو الأسبق إلى الظهور؛ ويرجع ذلك إلى أن التصوف يبدأ أولاً بالرياضة والمجاهدة لا بالتأمل والتفكر؛ لهذا كان القلب لدى المتصوفة أكثر أهمية وأعظم مكانة من العقل حتى أنهم جعلوه عرشاً للرحمن، كما أنه صرحوا في مناسبات عدة بعدم جدوى العقل في قطع الطريق إلى الخالق، عز وجل، من هنا كان التصوف ذوق وعاطفة أكثر منه تفكير وتأمل ، والمذاهب الصوفية تتكون من باب الإحساس لا من باب التفكير العقلي. حيث يلاحظ أن الشعور الصوفي مع ضخامته ليس فيه محتوى فكري من ذاته، ولكنه يستطيع التزاوج مع المادة التي تقدمها كل المذاهب الفلسفية والديانات المختلفة أيضاً إذا وجدت هذه مكاناً في إطارها للعاطفة الغريبة في الشعور الصوفي، وحتى تكتمل ملامح الشعور الصوفي يقترح وليم جيمس (willim james) أربع علامات مميزة إن وجدت في تجربة كانت مبرراً لأن تسمى تجربة صوفية (mysticalism) والعلامات هي[2]:

أ/ الاستعصاء على الوصف: يصعب على المتصوف وصف حالة التصوف بالكلمات، والحالات الصوفية (mystical-states) بهذه الخاصية وجدانية تكون أقرب ما تكون إلى الإحساس والشعور منها إلى التفكير العقلي المنطقي.

ب/ القيمة التجريدية : تبدو حالات التصوف لمجربيها عبارة عن حالات معرفة ، فهي تشكل حالات ادراكية لأعماق الحق غير المختلطة بالذكاء أو التفكير العقلي.

ج/ الوقتية أو الظرفية: عادة ما تكون حالات الوجد الصوفي قصيرة الفترة الزمنية، فهي بين النصف ساعة والساعتين .

---

1 / عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص : 369 ، مكتبة الآنجلو المصرية . 1954م.

/3Willm james : the variaties of reli gious0 P: 204.

د/ السلبية : حيث يغيب صاحب لحالة الصوفية عن الوعي، ويحس أن ذاته قد سلبت منه، على الرغم من أن بداية الشعور الصوفي يمهد له ببعض الأعمال الإرادية من: تركيز الانتباه ، ترديد الأذكار، السماع ... وغيرها.

وبجانب تلك الملامح التي ذكرها وليم ، هناك صفة في الصوفي نفسه يجب أن لا يهمل ذكرها ألا وهي النقاء والصفاء: فكلما كان الصوفي نقي السريرة خال من المعاصي كان أقرب إلى الدخول في تجربة الحالة الوجدانية الصوفية، ومرد ذلك إلى صفاء القلب وخلوه من الشواغل والتفكير فيها؛ لأن صاحب القلب المشغول لا يستطيع الدخول إلى حلبة التصوف ما لم ينقي فؤاده من هموم الدنيا والخلاص منها ليدخل في ملكوت الله.

لقد كان التوفيق محالفاً وبشدة للإمام الغزالي حينما هداه فكره إلى البحث والتنقيب في مجال علم التصوف، مما مكنه من تقديم علوم الصوفية وأفكارهم بشكل مبسط يستطيع أن يدركه الخاصة والعامة من الناس، وبذلك يكون الغزالي قد ساهم مساهمة فعالة لم يبلغها أحد من قبله ولا من بعده. فقد قام بوضع أسس علم التصوف بما بينه من مصطلحاته وما قام بشرحه من ألفاظه التي كانت مستعصية على الفهم والإدراك عند الكثيرين من الناس: المقامات، الكشف، الفناء، السماع، الشهود، الذوق، الصبر، الزهد، الرجاء، الخوف، التوكل، التوسل، الكرامات، الصحو، السكر، الشوق، الرضا، الحب، وغيرها من الرموز الصوفية[1].

لقد افتقد الغزالي السعادة وهو غارق في علائق الدنيا ... وضاق بالدنيا وغرورها ومتاعها الرخيص، فرنا ببصره إلى آفاق السعادة الأخروية التي لا تعدلها سعادة عند ذلك اتخذ الغزالي التصوف منهجاً رأى صدقه وصحته ، فآمن بأنه هو السبيل الوحيد المؤدي إلى طريق الحق ، وأقرب الدروب المؤدية بالإنسان إلى أن يدرك معنى السعادة في الدارين ، الدنيا والدار الآخرة حيث الحياة الأبدية والنعيم الخالد ،

1 / شوقي بشير : نقد ابن تيمية للتصوف ، 28 ، دار الفكر (الخرطوم) . 1987م.

والسعادة اللانهائية. لذلك سلك الغزالي طريق التصوف، وكذلك دعا الناس أن يسلكوا هذا الدرب ؛ وذلك لعلمه بمنفعته[1].

وللخلاص من تلك الآفات على الشخص أن يتبع العلاج الصحيح المؤدي إلى الشفاء بإذن الله تعالى:

أ/ الرياضة بالإكثار من العبادة .

ب/ إخلاص النية في العمل.

ج/ قوة الإرادة والعزيمة .

د/ مجاهدة النفس وكبح جماحها .

هـ/ التدرج بالنفس في تحسين السلوك.

وحتى يتمكن الشخص من الدخول في زمرة العارفين والذين يصفهم الغزالي في مقدمة كتابه بأن رأس مالهم هو الافتقار ونظام أمرهم الإطِّرار علمهم دواء الذنوب وعرفهم طب القلوب [2].

ومن الملاحظ أن الغزالي سلك مسلك المتفكر والمتأمل في كل ما طرق ولم يتنكب طريق الفقيه الأصولي الذي يعمل على استنباط الأحكام ، فهو يقول، في باب الزكاة: (وعن كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله فزكاة القلب التفكير في عظمته وحكمته)، وفي باب الصوم: (ومنة الله في توفيقك للصوم أعظم من أن تقوم بشكرها ومن صومك أن لا تطلب منه عوضاً). كما يقول عن الاستعداد لأداء فريضة الحج: (واستعد استعداد من لا يرجو الإياب)[3].

ويريد الغزالي من كل إنسان أن يتفكر في قوله: (هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١) الإنسان: 1، واعتبر بما مضى من الدنيا على ما

---

1 / زكريا بشير : لمحات من تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص :307.

2 / الغزالي : منهاج العارفين ، ص : 79 ، مكتبة الجندي (مصر).

3 / نفس المصدر ، ص : 93.

تراه [1]. ويقول : (وإعراب القلوب على أربعة أنواع : رفع ، وفتح ، وخفض ، ووقف، فرفع القلب في ذكر الله تعالى ، وفتح القلب في الرضا ....، وخفض القلب في الانشغال بغير ذكر الله تعالى، ووقف القلب في الغفلة عن الله ... واجعل قلبك قبلة لسانك: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾) **الرعد:28**. (إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾) **الأنفال:2**.

والذكر ذكران ذكر خالص بموافقة القلب، وذكر في سقوط النظر إلى غير الله) [2].

وفي كتاب (الرسالة اللدنية) قسم المعرفة إلى فرعين كبيرين هما :

الأول: العلم الشرعي : وهو أقسمان هما :

أ/ أصول التوحيد.

ب/ علم الفروع.

إن القلب عند جميع أهل التصوف هو محور ومركز المعرفة التي وضعها الله . جلت قدرته . في بني آدم منذ النشأة الأولى ، ففي هذا القلب ينطوي سر الوجود الأعظم كله بلا استثناء، ويشبهه سهل التستري بالعرش ، والصدر بالكرسي، ولا يعني بهذا التشبيه، الكرسي والعرش الإلهيين، ولكنه يجعلهما رمزاً لأشياء معنوية [3].

والقلب في الأصل هو منبع المكاشف ومنزل الوحي والإلهام الرباني، الذي يتلقى العلوم والمعارف دون أن يدري الفرد مصدر هذه المعرفة، وهذا النوع من المعرفة لا يحتاج إلى واسطة أو إلى وسيلة مادية من الوسائل المتعارف عليها بين الناس ولا يشبه الطريقة المعتادة لتلقي العلوم ؛ وإنما هو علم يقع في الفؤاد لا لبس في حقيقة

1 / الغزالي : مهاج العارفين ، ص :95، مكتبة الجندي مصر .

2 / الغزالي : منهاج العارفين ، ص: 84.

3 / الغزالي : الإحياء ، ج : 3 ،ص : 5.

صحته على الإطلاق ، وهو عزيز جداً إلا على من خصه الله. فكل حكمة تظهر في القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ؛ فهي إنما حدثت بالكشف والإلهام:

(وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩) **العنكبوت:69.**

(فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥) **الكهف:65.**

وقال، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، (من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه في ما يعمل حتى يستوجب الجنة ...)[1]، كذلك قال: (عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[2]، وفي صحيح البخاري: (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)[3]. وقد فسر ابن عباس (رض) قوله تعالى: (يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩) **البقرة: ٢٦٩.** بقوله إن المؤمن ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه للحق الذي يقذفه الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم.

وقد أدرك الغزالي معيار الحقيقة فانطلق يرسم له الأدلة والبراهين ويحدد موازين المعرفة ، فجعل موازين المعرفة (العرفانية) ثلاثة هي[4] :

أ/ ميزان التعادل .

ب/ ميزان التلازم.

1/ لم أعثر لهذا الحديث على وجود.

2/ سنن الترمزي ح:5 – ص:298.

3/ صحيح البخاري ج:1 – ص: 39.

4 / الغزالي : القسطاس المستقيم ، ص : 14.

ج/ ميزان التعاند.

(ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩) **الرحمن:1-9.**

(لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥) **الحديد: 25.**

. مكاشفات الصوفية:

لقد خص الله تعالى بعض عباده بشئ من الكرامات التي يظهرها على يد أوليائه الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: (أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢) **يونس: ٦٢.**

وأمثال هذه المكاشفات أو الكرامات ينبغي أن لا ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الإيمان عليه، لأن هذه المقامات لا تظهر إلا بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس. ومن ينكر كرامات الأولياء ولا سند له إلا قصوره؛ فكأنما ينكر قدرة الله في أن يفعل ما يشاء[1]. فكيف للإنسان أن ينكر على الله أن يهب أحد أوليائه صفة أو سمة يخصه بها دون عباده؟ والكرامة أو المكاشفة هي ليست من قبيل معجزات الرسل والأنبياء، ولكنها بمثابة السر المكشوف بين المتحابين، فيحمل كل منهما سر الآخر؛ حيث يبلغ العبد مقام المعرفة دون وسيط

1 / الغزالي : الإحياء ، ، ج : 4 ، ص :356.

مادي فيشهد رفع الحجاب بين الروحه والفؤاد فيكون مرفوعًا عنه الحجاب وهي مراحل ثلاثة:

. مكاشفة تدل على التحقيق الصحيح: وتقع للعبد بين الفينة والأخرى.

. مكاشفة مستدامة: وتحدث بشكل دائم دون انقطاع.

. المكاشفة الصحيحة: وهي علوم يحدثها الرب في قلب العبد ويطلعه على أمور تخفى على غيره من الناس[1].

وهذه المكاشفات والكرامات تقع للأولياء الصالحين من عباد الله تعالى الذين اصطفاهم من بين خلقه وقطع هممهم عن المتعلقات واشتراهم من دعاوى نفوسهم وأهوائهم وأقام كل واحد منهم في درجة وفتح عليه باباً من المعاني ... والمراد من هذا هو أن تعرف أن لله عز وجل قد خص أولياءه بولايته ومحبته وهم ولاة ملكه الذين اصطفاهم وجعلهم آية لإظهار فعله وخصهم بأنواع الكرامات وطهرهم من آفات الطبع وخلصهم من متابعة النفس فلا هم لهم سواه ولا أنس لهم إلا معه. وقد كانوا قبلنا في القرون الماضية، وهم موجودون معنا الآن وسيبقون يوم القيامة. (قال النبي صلى الله عليه وسلم إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الآية ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[2].

بحث الصوفية الأوائل لأنفسهم عن سند شرعي من القرآن والسنة لإثبات درجة الولاية التي أشتق منها لفظ الولي؛ والغرض من ذلك كله هو صنع هالة من القداسة أو القدسية على العابد المنقطع لعبادة الله تعالى، وقد ورد لفظ ولي بتصاريف متعددة في القرآن العظيم؛ وذلك في مثل قوله تعالى:

1 / ابن القيم : مدارج السالكين ، ج : 3 ، ص : 223.

2/ سنن أبي داود ج3 – ص: 288.

(هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾) **الكهف: ٤٤.**

(ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾) **البقرة: ٢٥٧**

(أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾) **يونس: ٦٢.**

كذلك وجد الصوفية سنداً في السنة يعضد فكرة الولاية لديهم؛ وذلك في قوله، عليه أفضل صلاة وأتم تسليم،: (... عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته)[1].

وكان أول من تحدث من الصوفية عن الولاية هو: أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمزي صاحب كتاب (ختم الأولياء)، وقد صارت الولاية بعده قاعدة وأساس طريقة التصوف، والولاية في جوهرها ومضمونها مرتبطة بالكرامات التي يظهرها الله على أيد أوليائه من عباده الصالحين الذين يضعون أنفسهم في مرتبة تلي الأنبياء مباشرة، يقول أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري: واعلم أن جملة مشايخ هذه الطريقة مجمعون على أن الأولياء في جميع الأوقات والأحوال متابعون للأنبياء مصدقون لدعوتهم. والأنبياء أفضل من الأولياء؛ لأن نهاية الولاية بداية النبوة وجميع الأنبياء أولياء. ولكن لا يكون من الأولياء نبي. والأنبياء متمكنون في نفي صفات

1/ صحيح البخاري ج5 – ص:2384.

البشرية والأولياء عارية، وما يكو لهذا الفريق حالاً طارئاً يكون لذلك الفريق مقاماً. وما يكون مقاماً لهذا الفريق يكون لذلك الفريق حجاباً، ولا يختلف في ذلك أي أحد من علماء السنة ومحققي هذه الطريقة[1].

من هذا الكلام يمكن القول بأنه ليست ثمة صلة بين تلك العلامات والشواهد المتعلقة بالرسل والتي اختصهم الله تعالى بها للدالة على صدق دعواهم، وبين ما يظهره بعض رجالات الصوفية من خرق لنواميس وقوانين الطبيعية. وظهور تلك الخوارق على أيد الصوفية أمر جائز، والدليل على جوازه أنه أمر مقبول حدوثه عقلًا، لا يؤدي حصوله على رفع أصل من الأصول ....، وإذا وجب كونه مقدورا لله سبحانه فلا شئ يمنع جواز حصوله[2].

ولكن لابد أن هناك فرقًا ما بين ما يظهره الرسل من علامات تدل على صدق دعواهم، وبين خوارق الصوفية، وهذا أمر طبيعي طالما أنه قد ثبت أن الأنبياء أكثر فضلاً من الأولياء: فالقصد منها تدعيم موقف النبي/الرسول، وإثبات صدق المرسلين لدى العامة من الناس، الذين لا يؤمنون أو يصدقون بما جاء به الرسل إلا بعد رؤيتهم لبرهان مادي محسوس وملموس يدرك بواحدة من الحواس الخمس المعروفة أو أكثر؛ فهي (براهين الرسل والأنبياء) دائماً ما تحدث أمام جمع من الناس تكون عقولهم في حاجة إلى نوع من البراهين المادية لكي تؤمن وتصدق؛ لأن عقولهم لا تدرك الأشياء المجردة ولا تدرك معنى المجرد أو التجريد، وهم ماديون بطبعهم ولا يقع الإيمان في قلوبهم إلا بالشئ المادي المحسوس. وهذا النوع من البشرية يكثر وجوده بين الناس، لاسيما اليهود الذين قدمت لهم العديد من الأدلة والبراهين الساطعة والناصعة والتي لا يملك الشخص العاقل إزائها إلا التسليم والتصديق، إلا أنهم قالوا لموسى، عليه الصلاة والسلام، أرنا الله جهرة.

1 / محمد عابد الجابري : بنية العقل العربي ، ص : 349.

2 / عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية ، ص :208.

(وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾) **البقرة: ٥٥**

أما في الديانة المسيحية فيمكننا أن نجد الكثير من تلك البراهين المادية، والتي تتجلى للناظر في تلك الآيات التي استخدمها عيسى، عليه الصلاة والسلام، فهو: يكلم الناس وهو في المهد، ويحيي الموتى، ويبرئ الأكمه، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيصير طيراً بإذن الله، وينبئ الناس بما يدخرون في بيوتهم.

(إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾) **المائدة: ١١٠.**

(وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾) **آل عمران: ٤٩.**

إلا أن الناظر، بشئ من التفكر والتأمل، يجد أن هذا النوع من البراهين والأدلة قليل الاستخدام بين المسلمين وذلك لطبيعة الرسالة المحمدية التي تقوم في أساسها على الجانب العقلي والروحي في تثبيت الإيمان في نفوس المؤمنين، فهم في جملتهم لم يطلبوا دليلاً ملموساً يبرهن على صدق الرسول الكريم، عليه أفضل صلاة وأتم

تسليم، إلا من بعض الغلاة وهم قلة لا يعتد بها في هذا الأمر، كما في الديانتين اليهودية والمسيحية. وحتى تلك البراهين المادية التي ظهرت على يد رسولنا الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، لم يكن مقصود بها إلا الذين شهدوها وشاهدوها بأم أعينهم، ولا يقدح عدم التصديق بها في إيمان منكرها على الإطلاق، وليست هي من واجبات أو من كمال الإيمان بالله وبرسوله. ولكن لا يعني هذا أن كرامات الأولياء غير صادقة أو أنها من أمور الشعوذة والدجل؛ لأن الولي لا يطلب من ورائها منفعة أو مصلحة بل تزيده تواضعاً وخضوعاً لله تعالى كما أن الكرامة ليست بيده وإنما هي من الله تعالى وليس للولي من الأمر شئ. والولي هو ذلك الذي يقول فيه رسولنا الكريم، عليه أفضل صلاة وأتم التسليم،:(عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره)[1].

فالصوفية، في ظني اليقيني، هم أولئك النفر الذين عرفوا الله حق المعرفة وعبدوه مخلصين له الدين، ولا يتعلق الأمر بالشكل أو المظهر الخارجي وليس في لبس المرقع أو الطيالسة؛ ولكنه يتعلق بالقلب والاستقامة والتواضع والسعي في قضاء حوائج الناس، وطاعة الله تعالى وطلباً لمغفرته ورضوانه. وأبعد القلوب عن مثل تلك المعاني القلوب المتكبرة المعجبة بنفسها المستبشرة بعلمها. وأقرب القلوب إلى تلك المعاني السامية هي القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها... فمثل هذه القلوب تأمل أن تدخل في حضرة ذي العزة والجبروت فلا تخشى شيئاً بعد ذلك أبد الدهر. فمن لم يستطع أن يكون ولياً من أولياء الله تعالى فلا أقل من أن يتعلق بحبال محبتهم، فعساه يحشر مع من أحب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم معافى من علل هذه الدنيا وأمراضها التي لا شفاء منها إلا بعمل طيب يتقبله الله، جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة فلما قضى الصلاة قال: أين السائل عن الساعة ؟

1/ المستدرك على الصحيحين ج: 3 – ص:364.

فقال الرجل: أنا يا رسول الله، قال ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، أو قال: ما أعددت لها كبير عمل، إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام :(المرء مع من أحب) أو أنت مع من أحببت)[1].

والسؤال المهم والذي يطل برأسه هنا باحثاً له عن إجابة: لماذا كثرت تلك الخورق التي تتم على أيد الصوفية على الرغم من ندرتها على أيد رسولنا الكريم، عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم،؟ وربما كانت الإجابة عن هذا السؤال تكمن في النقاط التالية:

1/ ربما كان هنان نوع من التزيد والمبالغة في كثير من الأحيان، لاسيما وأن كل مريد من المريدين يريد أن يعلي من قدر شيخه ويرفع من شأنه.

2/ إن هناك الشئ الكثير من التنافس بين الطوائف التي تشكل مجتمع الطرق الصوفية المتعددة، وهي كثير ما تسعى إلى تضخيم الأعداد المنتمية إلى سيد الطريقة، فكلما تكاثرت الأعداد المريدة والمنتمية للجماعة، كبرت معه بالتالي مكانة زعيم (شيخ) الطائفة الأمر الذي يؤدي إلى زيادة النفوذ الروحي والديني بل والاجتماعي والاقتصادي أيضاً.

. الولي والإمام:

يقول محمد عابد الجابري : ... أما الولي الصوفي فالموهبة الأساسية التي يدعيها والمهمة الرئيسية التي يمارسها هي القيادة الروحية. أما الفقه والسياسة ، فهو، من الناحية المبدئية ، لا يهتم بهما[2]. وربما كان الجابري على صواب في جزء مما ذهب إليه ولكن الصواب قد جانبه حين قال إن الصوفي لا يأبه بأمر الفقه ، فمن المعروف أن الصوفي لا يصبح ولياً إلا بعد تمكنه التام من الفقه والسنة ، وهذه قضية لا تحتمل مجرد الشك فيها ؛ لأن التصوف وإن نحا منحًا فكرياً أو فلسفياً إلا أنه لا يهمل أمر الاشتغال بالسنة والاهتمام بها وبأمر القرآن العظيم. فقد أورد القشيري في

1 / الغزالي : الإحياء ، ج : 5 ، ص : 67.

2 / محمد عابد الجابري : بنية العقل العربي ، 345.

الرسالة القشيرية : قال أبو يزيد: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة[1].

كذلك يذهب الجابري إلى أن الولاية في الصوفية هي أمر مستنسخ من الإمامة عند الشيعة حيث يقول: (ولم يقتصر الصوفية على تأسيس الولاية عندهم بالارتباط المباشر بأئمة الشيعة ، بل لقد ذهبوا أبعد من ذلك فاقتبسوا من الإمامة الشيعية هيكلها العام ، بل استنسخوه استنساخا. فهم في ذلك لم يكتفوا بمجرد الارتباط بأئمة الشيعة الكبار الستة الأوائل ، بل لقد غرفوا من مرويات الاثني عشرية ، كما تبنى الباطنيون منهم ، كابن عربي ، جوانب أساسية في الفلسفة الإسماعيلية). وفي موضع آخر يكرر الجابري حديثه مرة أخرى فيقول :(الولاية الصوفية مؤسسة على الإمامة عند الشيعة ومستنسخة منها. هذه حقيقة تاريخية لا مجال لإثارة الشكوك جولها)[2]. وقد استند الجابري في حديثه ذاك على بعض أقوال الصوفية نحو قول الشيخ الجنيد الذي يقول: (إن شيخنا في الفروع والأصول وتحمل البلاء، علي المرتضى "علي بن أبي طالب" ، لأنه في مباشرته الحرب قد نطق بأشياء وحكايات لم يكن لأحد طاقة على سماعها. لقد وهبه الله جماً من العلم والحكمة والكرامة). وقول الطوسي : (إن أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، من بين جميع أصحاب رسول الله خصَّ بمعان جليلة وإشارات لطيفة وألفاظ مفردة وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم وغير ذلك من خصال شريفة تعلق وتخلق به أهل الحقائق من الصوفية).

قد تكون ثمة أوجه للشبه بين الولي الصوفي والإمام الشيعي ، إلا أن الأمر، وبكل تأكيد، لا يبلغ حد الاستنساخ أو النسخة الكربونية. والخلاف بين الطائفتين ربما يمكننا تلخيصه في ما يلي:

1/ الرسالة القشيرية ج1 – ص:13..

2 / نفس المصدر ، ص : 346.

أولاً: تعد الإمامة عند الشيعة في المكان الأول من الأهمية ، بل هي أهم ركائز الدين التي لا يستطيع النهوض من دونها ، ويذهب الشيعة في أمر الإمامة إلى حد أنهم جعلوها من ضمن العقيدة الإيمانية ولا يتم إيمان الفرد وعقيدته إلا بها ، ولهم في ذلك أحاديث منها : (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)[1]. وعند مقارنة هذه الأقوال نجدها لا تتوافق وما يقول به الصوفية في الولاية ، فمثلاً عدم الإيمان بالولي لا يقدح في عقيدة المسلم أو درجة إيمانه.

. ثانياً: من الفروق التي ذكرها الجابري نفسه : إن أهم ما يميز الولاية عن الإمامة هو كونها غير محصورة في آل البيت ... بل هي لا تتقيد بشرط النسب، وإن كان كثير من أولياء الصوفية ينتسبون إلى الشرفاء من ذرية فاطمة (رض)، على أن مفهوم آل البيت قد وسعه المتأخرون ليشمل أهل الله من أمة محمد ، بل إن هناك من المتصوفة من تجاوز وتوسع في هذا المفهوم حيث وسع دائرة هذا المفهوم ليشمل الأمم الأخرى .

. ثالثاً: هناك فرق جوهري وهو أن الولاية شأن يتعلق بالعبادة والتقرب إلى الله تعالى ولا علاقة لها بالدنيا ، بينما ترتبط الإمامة عند الشيعة بأمور الدنيا وسياستها بأمر إلهي فالإمام يشكل ظل الله في الأرض ، ومن عصى له أمراً فهو يعصي أمر الله .

. رابعاً: الولاية درجة يبلغها السالك باجتهاده ولا يستطيع أحد من الناس أن ينازعه فيها ، فبالإمكان أن يكون هناك أكثر من ولي في زمان واحد بل وحتى في مكان واحد ، دون أن يكون هناك أدنى خلاف بين الأولياء. غير أن هذا الأمر من المستحيل أن يحدث في الإمامة ، فالإمامة تكون لشخص واحد لا غير ، دون اعتبار لمسألة السن .

. خامساً: إن الإمامة تعد بمثابة قيادة روحية وسياسية ؛ بينما الولاية لا تتعدى القيادة الروحية إلا فيما ندر، وربما تكون قيادة اجتماعية في بعض الأحايين.

---

1 / منهاج السنة ، ج : 1، ص : 2.

المبحث الثاني: نقد التصوف

في ما سبق لنا من حديث تناولنا علم التصوف بشئ من المدح وذكر الكثير من مناقبه دون التعرض للنقد الذي صوبت الكثير من سهامه إلى منهج التصوف وإلى سلوك جماعته.

وهذا هو محمد حامد الفقي يصب جام غضبه على أبي إسماعيل الغراوي مؤلف كتاب (منازل السائرين)، في مقدمته التي وضعها لكتاب ابن القيم الجوزية [1]، فيقول: ... حتى صاح بتوحيدهم الذي يدندن عليه أولهم وآخرهم من قديم العصور إلى يومنا هذا ، إلى ما شاء الله ، لا يستطيعون أن يحيدوا عنه ، ولا يقدرون أن يتخلصوا منه , ما داموا سالكين إليه الطريق الذي رسمه أوائلهم من الهند والفرس ... وهذا التوحيد : هو الذي يقرره، بكل صراحة، أبو يزيد البسطامي والحسين الحلاج وابن عربي وابن سبعين وابن الفارض وعبد الكريم الجيلي وإخوانهم من الناعقين بوحدة الوجود. وذلك أنهم يقولون أن ربهم ومعبودهم هو: النواة الأولى والمادة التي خرج منها كل هذا الوجود بأرضه وسمائه ... . وما كان ولا ينبغي أن يكون للصوفية هؤلاء من قصد من ذلك إلا الوصول إلا غاية واحدة سعوا ويسعون لها بكل سبيل ، وقدموا في سبيل البلوغ إليها كل غال ونفيس. تلك هي أن يكونوا السادة المقدسين ، والشيوخ المعظمين عند العامة. لأنهم، بزعمهم، هم وحدهم العارفون ... إلى آخر ما وجهه الفقي من نقد وتوبيخ للصوفية. إلا أن أشد ما صوبه إليهم من سهام نقده هو قوله : ... وهم المظهر الأكبر لتلك الحقيقة الإلهية التي هي ربهم، كما حقق ذلك في تصحيح أخيهم وزميلهم فرعون (أنا ربكم الأعلى) (ما علمت لكم من إله غيري) . ليتخذوا العامة عبيداً لهم ...، إلى آخر الهجوم على تلك الطائفة .

ـ نقد التصوف عند ابن تيمية:

هو : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم المعروف بابن تيمية (661ـ 727هـ). قال عنه البزار : إنه لما أخذ وسجن بمصر وحيل بينه

1 / ابن القيم : مدارج السالكين ، ج : 1، ص : المقدمة، ك.

وبين كتبه ؛ صنف عدة كتب ذكر فيها الأحاديث والآثار وأقوال العلماء وأسماء المحدثين ، وعزا كل شئ من ذلك إلى مكانه وإلى ناقليه ، وذكر أسماء الكتب وفي أي موضع منها. كل ذلك بديهة من حفظه. وهذا إن دلّ على شئ إنما يدل على مدى تميز ابن تيمية بعقل لا يبارى[1].

تميز ابن تيمية باستقلالية فريدة في الطبع والفكر لاسيما وأن ثقافته كانت ثقافة عربية خالصة مستوعباً جميع جوانب الثقافة الإسلامية في ذاك الوقت ، بتعمقه في دراسة علوم القرآن والحديث ، كما قاده ولعه الشديد بالعلم إلى التبحر والتعمق في علم التوحيد والبحث في الفلسفة والتاريخ وعلوم اللغة ، وقد انعكست كل تلك العلوم والمعارف في تفسيره للقرآن العظيم بالمسجد الأموي بدمشق ، وكذلك بمسجد الحاكم بالقاهرة لما أعطي من حضور الخاطر وتبحر في العلوم ، فاستحق إعجاب كل من سمعه. أما علوم الحديث فقد تعمق ابن تيمية في تحصيلها على اختلاف ألوانها ومشاربها. وبطبيعة الحال فقد لاقى مسند الإمام أحمد بن حنبل عند ابن تيمية الحظوة والتقدير ؛ وذلك لما تميز به صاحبه من تفكير عقلي وتبويب منطقي في المسند حيث بوب الأحاديث الشريفة بحسب الدراسات الفقهية ، وعلى الرغم مما تمتع به كل من صحيحي الإمام مسلم والإمام البخاري من مكانة سامية في مجال علم الحديث والدراسات الفقهية ؛ إلا أن ابن تيمية فضل ترتيب وتنظيم مسند الإمام أحمد ،على غيره من كتب الحديث الأخرى كالترمزي ، وابن ماجة ، وأبي داود وغيرهم. ومن الواضح أن قراءات ابن تيمية في الحديث قد جعلته شديد التمسك بالسنة والالتزام بأحكامها.

وقد وجه ابن تيمية نقده إلى الحسين الحلاج، صاحب نظرية الحلول، ومحي الدين بن عربي، صاحب فكرة وحدة الوجود، متهماً الأول بأنه كان من الباطنية القرامطة ، كما اتهمه بمحاولة تقليد القرآن العظيم ، وقد قتل الحلاج باجتهاد فقهي، من وجهة نظر ابن تيمية، بعد ما ثبت أنه عطل ركناً من أركان الدين الإسلامي الأساسية

1 / ابن تيمية : الصارم المسلول على شاتم الرسول ، ص : 6.

، وهو الحج. أما ابن عربي الذي شبه العالم كله بالمرآة العاكسة ، فالخلق عنده عبارة عن فيض دائم ، وهو بهذا يكون أقرب إلى أفلاطون في نظريته المثل التي يرى فيها أن الكون يعيش في عالم المثل وهو بمثابة انعكاس لعالم الحقيقة ، ولابن عربي عدد من الشطحات أو السقطات، في رأي ابن تيمية، منها: أنه كان يساوي بين عبادة الله تعالى وعبادة الأصنام ، بل كان يرى أن فرعون قد مات طاهراً متطهراً ليس فيه شئ من الخبث ؛ وهو قول لم يسبقه إليه أحد من أهل القبلة، كما يقول شيخ الإسلام، ويذهب ابن عربي إلى القول بفضل الولي على النبي ؛ فالولاية عنده هي الفلك المحيط بالعالم ، وهي لم تنقطع ، ولها الإنباء العام ، بينما انقطعت نبوة التشريع والرسالة ، والتي يقال إنها ستكون لشخص في كل زمان ، أو إنها ستكون لخاتم الأنبياء. ويتصدى ابن تيمية إلى مثل تلك الأقوال ، عند ما يوضح أن مقولة (خاتم الأولياء) لا حقيقة لهل على الإطلاق، كما أنه كان يقول: إن الولاية القائمة بالرسول صلى الله عليه وسلم لم ولن تنتقل إلى أحد من بعده. وقد ترتب على تصور ابن عربي، كما يرى ابن تيمية، للوجود نتائج هادمة للدين والأخلاق ؛ حيث امتنعت التفرقة بين الخير والشر ، والتمييز بين أسباب الثواب والعقاب ، وسقطت بناءً على ذلك قيمة الالتزام الأخلاقي ؛ مما تسبب في اندحار الشريعة الأمر الذي تسبب في ظهور التتار ، لأن تمسك الصوفية بفكرة وحدة الوجود، المخالفة في جوهرها وحقيقتها لحقيقة القرآن العظيم، قد أدى إلى انحسار موجة التحضر والحضارة الإسلامية ، فقعدوا عن الجهاد فتكالبت عليهم الأمم[1].

ولم يقف نقد ابن تيمية للصوفية ورجالاتها عند حد الحلاج وابن عربي ، بل تعداه إلى الإمام أبي حامد الغزالي . وإن اختلف موقفه منه ، من حيث لهجة النقد الموجه نحوه ؛ ويرجع ذلك إلى أن أفكار الغزالي عن الفلسفة وعلم الكلام قد لاقت شيئاً من الموافقة والإيجابية ، لاسيما وأن موقف الغزالي من الفكر اليوناني محدد ومعروف ، كما تنبه إلى خطورة الأفكار الباطنية عند غلاة الشيعة والتي عانى العالم الإسلامي

1 / المرجع السابق ، ص : 92.

من آثارها الهدامة المتسمة بالحقد والكراهية للدين الإسلامي. وقد عدّ ابن تيمية الغزالي من المخلصين للدين عند ما وجه سهام نقده إلى المنحرفين من المتصوفة من أصحاب إسقاط التكاليف الشرعية.

هذا ما كان من موقف ابن تيمية الإيجابي تجاه الغزالي ، أما موقفه النقدي فيكمن في الأفكار الفلسفية التي تأثر فيها الغزالي بإفلوطين وغيره من الفلاسفة الاشراقيين ، فقد وصفه ابن عربي بأنه قد دخل جوف الفلاسفة ولم يخرج منه. وعلى الرغم من أن الغزالي قد حاول أن يلبس أفكاره الفلسفية، تلك، ثوباً إسلامياً ، إلا أن ابن تيمية رأى أنه قد تأثر ببعض أفكار الفلاسفة اليونانيين ، الذين سبق وأن تأثر بهم فلاسفة المسلمين كالكندي والفارابي وابن سينا مبيناً فشلهم في التوفيق، وهو عند ابن تيمية تلفيق وليست توفيق، بين القرآن والعناصر الفلسفية المستمدة من الفكر الإغريقي القديم ، معتبراً القرآن العظيم نسيج وحده فلا يجوز تفسيره تفسيراً عقلانياً كما فعل المعتزلة الذين قدموا العقل على النقل (الشرع) ، أما الفلسفة فلا تعني عنده أكثر من أنها موقف عقلي يهدف إلى تفسير الوجود ، فلا يصح إقحام الفلسفة على القرآن أو حتى الإسلام .

ومع هذا فقد تميز ابن تيمية في نقده للغزالي بشئ من الرقة بعكس ما فعله مع غيره من الصوفية ، وقد انصب نقد ابن تيمية على الجانب الفلسفي في فكر الغزالي ، ولولا ذلك لكان الغزالي من أعظم العلماء لدى ابن تيمية ، لاسيما وأنه كان يكن إعجاباً واضحاً لكثير من نصوص كتاب (الإحياء) خاصة تلك التي عني فيها بقواعد السلوك الأخلاقي في الإسلام ، كما يجد ابن تيمية للغزالي مندوحة يخرجه بها من دائرة الفلسفة وعلم الكلام ؛ وذلك عند ما يشير إلى أن الغزالي لم يكن من أصحاب الحديث ولكنه طلبه في آخر حياته عندما علم بعدم جدوى الفلسفة أو علم الكلام. ولكن الحقيقة هي أن الغزالي قد رأى أن الحقيقة تكمن في المزج بين الفلسفة وعلم الكلام والتصوف ، طالما أنها تتفق والشريعة الإسلامية المتضمنة في الكتاب والسنة ، وهنا تكمن مقدرة الغزالي في التوفيق بين تلك العناصر الثلاثة بهدف الوصول إلى قلب الحقيقة. ومن الواضح أن ابن تيمية قد تبنى بل وتزعم الموقف السلفي المناهض للتصوف، والمراد

بالسلف هنا , الصحابة والتابعين الذين عاشوا في القرون الثلاثة الأولى التي تميزت بانتشار الكثير من أهل العلم والمعرفة المتفق على تقديمهم في مجال الفقه الإسلامي : كالأئمة الأربعة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والليث بن سعد والبخاري ومسلم ... وغيرهم كثر، فلم يعرف منهجهم البدع التي كثرت عند الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية. إذن فقد تمسك ابن تيمية بمنهج السلف القائم على دعامتي القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة ، وهو منهج له أسسه وقواعده التي يسير على ضوئها:

. أولاً : تقديم النقل على العقل ، أي الأخذ بالشرع والتمسك بآدابه الواردة في القرآن والسنة ثم أقوال الصحابة بعد ذلك ، ومن هنا يلاحظ أن السمة الغالبة على أهل السلف هي أنهم أهل حديث.

. ثانياً : رفض التأويل ، لأن التأويل بشكل عام يقوم على العقل كقاعدة أساسية ؛ مما يقتضي تقديم العقل على النصوص الشرعية عندما يحدث خلاف بين العقل والنقل.

. ثالثاً : الاعتماد على آي القرآن في الاستدلال فما من مسألة من المسائل الكلامية أو الفلسفية التي خاض فيها الخائضون، إلا وكانت قد أوضِحَت في القرآن ؛ فقد أمد المسلمين بتقديرات وبيانات عن الذات الإلهية ومسائل التوحيد والنبوات واليوم الآخر ...[1].

ومن أبرز المعالم التي سار عليها منهج ابن تيمية هي : إن الحجة العقلية الصريحة لا تناقض الحجة الشرعية الصحيحة ، أي أن صحيح المنقول لا يعارض صحيح العقول ، والعكس أيضاً ؛ لذلك كتب ابن تيمية كتابه المسمى (موافقة صحيح المنقول لصريح العقول . أو درء تعارض النقل والعقل) ، الذي يدور فيه حول إثبات أن دلالة القرآن شرعية عقلية ؛ لاسيما وأن ابن تيمية قد لجأ إلى الاستدلال المنطقي والعقلي (القياس) متابعة منه لما كان يدور في عصره من جدل وحجج عقلية ؛ الأمر الذي يعني أنه لم يحارب من التصوف إلا الجانب الذي يخالف الشرع ويأتي بالبدع أما

---

1 / المرجع السابق ، ص :37.

ما وافق ما جاء في الشريعة فلا غبار عليه عنده ، ومن المهم هنا أن ندرك أن ابن تيمية قد تميز بنوع من النظر العقلي القائم على الكتاب والسنة وما وجد عليه الصحابة الكرام، أي أنه قد ألزم نفسه بهذا المنهج ، ورفض الخروج عن إطار الكتاب والسنة إلا إلى ما وجد عليه الصحابة ؛ لأنهم هم الأقرب إلى عهد الرسول الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهذا هو ما جعل بينه وبين التصوف حاجزاً ؛ لأن التصوف يقوم على الذوق في حين أن فكر ابن تيمية لا يعترف بغير الحجة القوية والبرهان الساطع .

والمتأمل في منهج ابن تيمية يرى أنه لا يخالف مناهج الفلاسفة إلا في عدم الخروج عن الإطار الذي حبس نفسه فيه ، وأيضاً في عدم الرضا أو الاعتراف بصحة ما جاء في الفكر والفلسفة اليونانية القائمة على العقل كدعامة أساسية.

. ضلالات الصوفية وشطحاتهم:

يُعد الصوفية عند كثير من الناس أنهم من أشد الناس تعظيماً لأنفسهم ، واحرصهم على إشباع شهواتهم وأهوائهم التي يسعون إلى تحقيقها ، تعظيماً لمكانتهم واستكباراً على العامة من الناس ، حتى أنهم قد أوشكوا على دعوة المريدين إلى عبادتهم من دون الله ، وقد رُوي عن معروف الكرخي أنه قال لتابع له : إذا كانت لك حاجة بعد موتي فائت قبري واسألنيها أقضها لك. يعتقد خصوم الصوفية أن حقيقة التصوف تقوم على الجاهلية القديمة وما تفرع منها من محاداة لله ورسوله ، وإتباع لغير سبيل المؤمنين، عن قصد وعلم لا عن خطأ وجهل، ويمكن مشاهدة ذلك من خلال ما يقوم به الصوفية من أفعال منافية ومخالفة للشرع ، بل ربما خالفت الذوق والسلوك الإنساني المهذب ؛ فإن من درس أفكار هؤلاء القوم المبثوثة في ثنايا كتب ومؤلفات كبار شيوخهم من أمثال : الحلاج ، وابن عربي ، وابن سينا ، وابن سبعين ، وغيرهم من الذين سلكوا طريق التصوف عرف حقيقتهم الصارخة على الرغم مما لابن عربي من كلام يحذر فيه من البدع والخوض في موضوع الذات والصفات والأسماء ، وطلب من العامة الوقوف عند حد مذهب السلف ، ولكنك حين تتعمق في صفحات كتابي الفتوحات والفصوص ، وغيرهما من مؤلفات الصوفية تجد الإنكار الصريح

للرب ، بل وحتى أسمائه وصفاته التي جاء ذكرها في القرآن العظيم وعلى لسان الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام) ، كما ترى في تلك المؤلفات أن حديثهم كله يقوم على أن ربهم هو النواة والمادة التي خرج ونبت منها الوجود . وأن أسماءه وصفاته ما هي إلا هذا الوجود بمظاهره[1].

ويقول ابن تيمية : ... فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء والمتفلسفة والباطنية والملاحدة القائلين بوحدة الوجود ... وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها (أصول العقيدة) بأزمة الضلال ، وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد ابطال الشريعة ... واتباع طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها . بزعمهم . حكميات وعقليات ، وإنما هي ضلالات . ومن أقوال ابن تيمية التي ينتقد فيها الصوفية والتصوف قوله : ... يجب قتلهم ولا تقبل توبة أحد منهم إذا أخذ قبل التوبة ، فإنه من أعظم الزنادقة ... وتجب عقوبة كل من انتسب إليهم أو ذبّ عنهم أو أثنى عليهم أو على ما كتبوه ، أو عرف بمساعدتهم أو حتى كره الكلام فيهم [2].

والسؤال ما الذي دعا هؤلاء العلماء إلى نقد الصوفية واتهامهم بالضلال ؟ لابد أن هناك ما أثار حفيظتهم في سلوك بعض من المتصوفة أو أقوالهم ؛ ومن تلك الأقوال:

وتعذيبي مع الهجران عندي * أحب إليّ من طيب الوصال
لأني في الوصال عبيد حظي * وفي الهجران عبد للموالي

وأيضاً:

أحبك. لا أحبك للثواب * و لكني أحبك للعقاب
وكل مآربي قد نلت منها * سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

ومثل هذه الأقوال تنبئ عن مظهر من مظاهر الغرور الجامح عند أهل التصوف ، كما تشير إلى شئ من الشعور بالتفرد في العبادة واكتشاف الحقيقة الربانية

1 / ابن القيم : مدارج السالكين ، ج: 1، ص : 39.

2 / مجموعة فتاوى ابن تيمية : تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن القاسم ، ج : 1، ص : المقدمة (و).

، الأمر الذي جعل الناس ينقسمون إلى قسمين : قسم ينفرون من التصوف وينظرون إليه بعين الغضب والسخط مما حرمهم من التمتع بمحاسن التصوف وجمال سلوكياته ، فأساءوا الظن بكل شئ يرتبط بسلوك المتصوفة دون تمييز أو تدبر. وقسم آخر: حجبوا بما رأوه من روعة التصوف وحسن سلوكيات كبار شيوخ الصوفية ، وما عرفوه عنهم من صدق في العبادة وصفاء القلب والسريرة ، مع قوة عزائمهم التي لا تني ولا تفتر، ويضاف إلى ذلك حسن التعامل ، فأثرهم ذلكم الأسلوب وجعلهم يدورون في فلكهم ويسبحون بحمدهم . فقضوا الطرف عن غلطهم وسحبوا عليها ذيل الحسن ، واجروا عليها حكم القبول ، دون يحكموا العقل أو يتدبروا الأمر.

غير أن هناك قسم ثالث . وهم أهل عدل وإنصاف . وهم الذين أعطوا كل ذي حق حقه ، وأنزلوا كل على قدر منزلته ، بإنصافهم لعلوم الصوفية ورجالاتها ، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح ، بل قبلوا ما يقبله العقل وردوا مالم يقبله.

ومن ضلالات المتصوفة التي تعرضت لكثير من النقد اللاذع ، المشاهدات في المنام (الأحلام) فقد وجه لها خصوم التصوف الكثير من سهام نقدهم ؛ لأن الصوفية قد جعلت منها حكماً على الإنباء أو الإخبار عن الغيب ، وهو أمر ينكره عليهم خصومهم من أهل السنة ؛ لأن فتح مثل هذا الباب . الذي يدعي منتحلوه معرفتهم بالغيب . يفتح الباب على مصراعيه أمام كثير من الزنادقة. وقد ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه غضب على أم العلاء حين مات عثمان بن مظعون فشهدت له بالجنة. فقال:(وما يدريك؟)[1].

على الرغم من هذا النقد الموضوعي ؛ إلا أن الأمر لا يخلوا من الصحة من جانب الصوفية ؛ لاسيما وأن الرؤيا المنامية قد ورد ذكرها في القرآن العظيم في قصة سيدنا يوسف، عليه السلام:

---

1 / ابن القيم : مدارج السالكين ، ج : 2 ، ص : 41.

(قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾)

يوسف: ٤٤ – ٤٨

كما أشتهر عن أبي بكر الصديق أنه كان يفسر الرؤيا ، وبجانب ذلك فهناك كثير من الرؤى المنامية التي تتحقق وتتطابق مع الواقع في كثير من الأحيان ، وهي ربما تكون صدفة أو غير صدفة ، الأمر الذي ينفي عن الصوفية الصادقين السالكين لسبيل الحق ، الكذب أو الضلال في شأن الرؤيا المنامية.

ومن أعظم ما وقع فيه المتصوفة من ضلالات وأوهام هو إسقاطهم للتكاليف الشرعية مما تسبب لهم في نقد وصل بهم إلى درك الكفر والإلحاد ، وفي ذلك يقول الإمام السلفي ابن القيم الجوزية: وأما غلطُ من غلطَ من أرباب السلوك والإرادة في هذا الباب : من حيث أنهم ظنوا أن شهود الحقيقة الكونية ، والفناء وتوحيد الربوبية ، من مقامات العارفين بل من أجل مقاماتهم. فساروا شائمين لبرق هذا الشهود. سالكين لأودية الفناء فيه. وقد حثهم على هذا السير والرغبة فيه : ما شهدوه من حال الفرق الطبعي (السنيون) فأنفوا من صحبتهم بل ورأوا مفارقتهم فرض عين لابد منه ...[1].

ومن الواضح أن مثل هذا السلوك هو سلوك منحرف عن منهج الصوفية المتبعين لمنهج القرآن والسنة ؛ لأنهم قد تركوا ما جاء به الشرع وتعلقوا بأوراد صنعوها بأنفسهم ظناً منهم بأنهم قد بلغوا الغاية فليس عليهم من بأس إن تركوا الفرائض والسنن

---

1 / ابن القيم : مدارج السالكين ، ج: 1 ص : 244.

وتشبثوا بتلك الأوراد ، فمنهم من أسقط الأوامر والنواهي جملة ، فهو يستغنى بقربه وجماعته عنها ، وتسقط الأوامر والنواهي عند بعض المتصوفة حين يصل السالك أو الواصل منهم إلى درجة شهود الحقيقة الكونية فيقولون : شهود الإرادة يسقط الأمر والنهي. والعارف منهم لا يستقبح قبيحة ولا يستحسن حسنة ؛ لاستبصاره بسر الله في القدر. وهذا في مذهب السنة من أقبح الجهل إن لم يكن من أشنع الكفر والضلال ؛ لأنهم فروا من جمع الجماعة إلى جمع أسقط التكاليف الشرعية ، فصاروا من أشد الناس إتباعاً لأهوائهم يميلون مع الهوى حيث مال بهم ، ويزعمون إنها الحقيقة. ومثل هذا المسلك يورد صاحبه المهالك لما في هذا الدرب من بطلان تنافي حقيقته حقيقة الاعتقاد والإيمان .

ومما عرف عن ابن سبعين (عبد الحق المرسي الأندلسي) أنه كان فقيهاً ثم انتحل التصوف على حقيقة فلسفية ، وبلغ من حبه لوحدة الوجود أنه هتف بها وكان من أصرح الدعاة بها ، وقد رُوي عنه أنه كان يقول، وهو قول يورده موارد التهلكة إن صح عنه: لقد حجر ابن آمنة (النبي عليه الصلاة والسلام) واسعاً بقوله : (لا نبي بعدي). وإنها لجرأة لم يسبقه عليها أحد من قبل. كذلك أخبر من رآه وهو قاعد في طرف المسجد الحرام ، وهو يسخر من الطائفين ويزمهم ، ويقول :كأنهم الحمر حول المدار. وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : العامة يعبدون الله وهؤلاء (المتصوفة) يعبدون أنفسهم[1].

ولا شك في أن أمثال هؤلاء من المنتسبين إلى جماعة الصوفية المؤثرون لحظوظهم على حقوق ربهم ، الواقفون عند حد أذواقهم ومواجيدهم ؛ لابد أنهم مبعدون عن حقيقة الله تعالى وعن مقصد مراده فالصوفية الحق هم أولئك الذين يقولون لهم : أما ما أنتم فيه من الفناء ومشاهدة الحقيقة القيومية ، والاستغراق في ذلك، فنحن في شغل عنه بتنفيذ أوامر صاحب الحقيقة والقيومية والاستكثار من طاعاته وتصريف الجوارح في مرضاته ، كما أنكم، بفنائكم واستغراقكم في شهود الحقيقة وحضرة الربوبية،

1 / المرجع السابق ، ص : 260.

في شغل عما نحن فيه، فكيف كنتم أولى بالله منا ، ونحن في حقوقه ومراده منا ، وأنتم في حظوظكم ومرادكم منه؟

والحقيقة أن من المتصوفة من أخطأ الطريق إلى التصوف وتعلق بأهداب أشياء لا تمت إليه بصلة لا من قريب ولا حتى من بعيد ، مما أبعدهم عن حقيقة هدى شرع الله ورسوله ، وقادهم إلى أن ساروا في طريق الضلال ، وقد غلط قوم ادعوا أنهم عين الجمع وأشاروا إلى صرف التوحيد وعطلوا الأحكام الشرعية.

المبحث الثالث: التصوف عند الغزالي

لاقى التصوف الكثير من الهجوم قبل أن يظهر الإمام أبو حامد الغزالي الذي مثل شخصية صوفية فذة في مضمار التصوف ؛ لاسيما وأنه هو الذي استطاع أن يوطد أركانه بما قام به من جهد مقدر جعل من التصوف أمراً محبباً لدى العامة قبل الخاصة، ولا يذكر التصوف إلا ويذكر معه الغزالي فهو صوفي أكثر منه فيلسوف، بل يمكن القول إن الفلسفة هي التي قادته إلى التصوف؛ لأن الشخص لا يصبح فيلسوفاً بمجرد تمكنه من علم واحد بل لابد له من المعرفة الشاملة بكل العلوم والتعمق في بحارها؛ ويقول الغزالي عن نفسه: ولم أزل في عنفوان شبابي، مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى أن أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل ظلمة، وأهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأتكشف عن مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل ومستن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ... ، ولم يدع الغزالي أحداً إلا وعرف مكنون معرفته وغايتها، لا فرق عنده في ذلك بين زنديق معطل ولا عابد متبتل ، فقد كان التعطش إلى معرفة حقائق الأمور هي دأبه وديدنه من أول أمره وفي ريعان عمره ، حيث كانت تلك اللهفة الشديدة إلى المعرفة هي غريزة وفطرة فطره الله تعالى عليها وغرس حبها في فؤاده . وليس من شك في أن هذه السمات قد استقاها الغزالي

من الفلسفة. وربما كانت دراسة الفلسفة هي السبب في تحول الغزالي إلى التصوف ، ولا يعني ذلك أنه قد تخلى عن الفلسفة ، ولكنه استفاد منها في التأليف والتصنيف ، ويظهر ذلك من خلال حججه وردوده المنطقية في الرد على خصومه ، فقد ظل التفكير المنطقي والعقلي من أبرز سمات الغزالي ؛ الأمر الذي أدى بابن تيمية إلى اتهامه بأنه كان متأثراً بأفكار أستاذه القاضي أبي بكر الباقلاني لفرط وفائه له ، فكان أن سار على نهجه واتبع مذهبه في أصول الفقه وأنه كان متأثراً بأبي زيد الدبوسي في فهمه لنظريات القياس المنطقي الذي ذاع صيته وعم فضله بفضل انتشار تعاليمه ومؤلفاته بين الورى ، والتي زينها بحسن العبارة وسهولة الإشارة وجزالة الأسلوب ، والتبحر في أصناف العلوم وأصولها ؛ مما جعل الغزالي متميزاً في تكوينه الثقافي والفكري ، على الرغم من اقتباسه للمحاته الفلسفية من كلام ابن سينا ومن كلام أصحاب رسائل أخوان الصفا ، ورسائل أبي حيان التوحيدي ؛ غير أنه برز في التصوف والصوفية وذاعت شهرته فيها بسبب صلته وعلاقته بالحارث المحاسبي وأبي طالب المكي . صاحب كتاب (قوت القلوب) الذي كان له الأثر الكبير على الغزالي في تأليف كتاب الإحياء , والناظر في هذا السفر يجد أن الغزالي قد احتفظ بكثير من ميوله الفلسفية ونزعته المنطقية التي تبدو في كلامه عن الكشف والإلهام والذوق... غيرها من الألفاظ التي هي أقرب إلى المعرفة الحدسية مخالفاً بذلك مقتضيات العقل ، مما جعل ابن تيمية يسخط عليه ويطلق عليه لقب (الصوفي المتفلسف) ؛ وذلك حينما أباح للصوفية في بعض العبادات: الغناء والإنشاد الروحي، كما كان ابن تيمية يجد نفس ابن سينا وتأيثر ابن عربي بنظريته وحدة الوجود , عند ما استخدم العبارات الإسلامية في التعبير عن مقاصد الفلاسفة . إلا أن ابن تيمية برغم ذلك الهجوم كان شديد الإعجاب بالغزالي وبإنتاجه الضخم ويقر بفضله في بناء ثقافته ومعارفه , ويبدو هذا الإعجاب في إشاراته إلى ما ورد في كتب الغزالي : الإحياء، كيمياء السعادة ، التفرقة ، المستظهر ، المقاصد ، المستصفى ، والرد على الباطنية ، ويستخدم ذلك في مؤلفاته. وكان الغزالي هو أستاذ ابن تيمية الأول في دراسة تاريخ الفرق والفلسفة ، فمنطق الغزالي الذي استقاه من ابن سينا ومن أرسطو هو نفسه الذي استخدمه ابن

تيمية في بناء أفكاره ونظرياته ، كما انتقل فكر الغزالي . بوصفه أبرز مفكري الصوفية السنيين . إلى مؤلفات ابن تيمية[1] .

لم تكن الصوفية المعروفة قبل الغزالي تتضمن شيئاً من النشاط المصلح الذي تميزت وتفردت به الصوفية عند الإمام الغزالي والتي اتخذت منحى تربوياً تعمل من خلاله على إعداد وتربية الزاهد تربية تنبني على الاعتماد على الذات ، ومؤسسة على حب الله تعالى جاعلة من ذلك الحب باعثاً ودافعاً جوهرياً لتطهير الروح وتنظيف القلب من دنس الدنيا. وقد تمكن الغزالي بهذا المنطق الجديد من كسر الجمود الذي قامت عليه المذاهب الفقهية ، كما استطاع أن يبعد بالتصوف من علم الكلام ويستله ويخرجه من بين ثنايا الأفكار الفلسفية، الحلول والاتحاد والفناء، التي علقت به من فلاسفة الصوفية كالحلاج وابن عربي والسهروردي ... وغيرهم من الفلاسفة المتصوفين أو الصوفية المتفلسفين. لقد وضع الغزالي للتصوف أسساً ينبغي على السالك الالتزام بمبادئها ويسير وفق سننها ومنهجها، حتى لا بفارق الحق ويضل الطريق إلى الله ، فمن أراد بلوغ المراد وتحقيق الوصول فعليه باتباع المنهج الرباني الواضح الذي لا عوج فيه ولا ضلال ؛ فهو مستنبط من الكتاب والسنة :

أ/الالتزام بقواعد الشرع الحنيف وملازمة عقيدة أهل السنة .

ب/ الإكثار من الذكر بكثرة النوافل.

ج/ الخلوة أو العزلة ما أمكن ذلك ، ولها فوائد عظيمة : كالتفرغ للعبادة ، ترك المعاصي ، حفظ النفس والدين من الفتن ، انقطاع الطمع ، تزكية النفس وتصفية القلب ، الأنس بالله تعالى.

د/ طلب العلم لأن الذكر يحتاج المعرفة.

هـ/ الزهد في ما في أيد الخلائق.

و/التوكل على الله حق توكله.

ز/صدق النية والإخلاص في العمل .

---

1 / هنري لاوست : نظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع ، ص : 221.

ح/مراقبة النفس ومحاسبتها.

ط/التفكر والتأمل بقلب خال من الشواغل.

ي/ الخوف من الله والرجاء لعفوه.

ك/الشوق إلى لقاء الله تعالى.

وهكذا سعى الغزالي إلى تقديم التصوف في ثوب إسلامي نقي خال من البدع والأفكار الضلالية التي انتشرت عن طريق الفرق والجماعات الصوفية . الضالة . التي كانت تدعو إلى تجاوز الحدود الشرعية بما استنته من قواعد سلوكية عملت من خلالها على افساد العبادات بكثير من البدع حيث كانوا يفضلون الأعمال التي تدعو إلى التأمل والتفكر كقيام الليل والذكر ، بينما يهملون الأعمال الداعية إلى العمل والنشاط الإيجابي لكسب الرزق كممارسة مهنة ما، وهم . في أغلب الأحوال . يعيشون عالة على أفراد المجتمع بحجة أنهم منشغلون بالعبادة والتعبد مما جعل منهم طبقة اجتماعية خاملة تحت شعار العزوف عن الدنيا والزهد فيها[1].

. كتاب إحياء علوم الدين:

من المعروف أن كتاب الإحياء هو من أجل وأنفس ما كتب الغزالي من كتب في مجال التصوف ، وهو من أعظم الكتب التي تظهر الأفكار الشخصية للغزالي الصوفي المتمكن في التصوف ، يقول الغزالي في خطبته : ... ولقد أسسته على أربعة أرباع. ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات ... .

وقد لقي هذا الكتاب الكثير من المدح كما لم يسلم من القدح والذم ، وفي ذلك يقول ابن تيمية : والإحياء فيه فوائد كثيرة ، ولكن فيه مواد مذمومة .

يحتوي الكتاب على كلام شيوخ الصوفية العارفين المستقيمين الموافقين للكتاب والسنة ، وفيه من العبادات والآداب ما هو موافق للعقيدة الإسلامية الحقة .

وقد أنكر الفقهاء على الغزالي تلك الأفكار الفلسفية التي بثها في كتابه الإحياء وغيره من كتبه ، حتى قال الفقهاء عنه . : (أمرضه الشفاء) يقصدون كتاب الشفاء .

---

1 / المرجع السابق ، ص :151.

في الفلسفة . لابن سينا لكثرة ما تأثر به . كذلك يحتوي الكتاب على الكثير والكثير جداً من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، بالإضافة إلى ما ضمه الكتاب من أغاليط الصوفية وترهاتهم[1].

غير أن أروع ما يثير الإعجاب في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الغزالي هو تناوله لموضوع الأخلاق من منظور إسلامي بحت جمع فيه بين نظرتين: النظرة الفلسفية والنظرة الصوفية.

فهو يسير في خط تفكير الفلاسفة في معالجة ودراسة الأخلاق ؛ بإخضاعه لجميع قوى النفس البشرية المختلفة لحكم العقل وسلطانه ، حيث يحصر الغزالي جميع الفضائل في أمهات الفضيلة :الحكمة ، الشجاعة ، العفة والعدالة[2].

ويشير من جانب آخر إلى نهج التفكير الصوفي في تحليله النفسي والروحي الدقيق ، حيث يدعو إلى تطهير الباطن وتصفية القلب والتحلي بفضائل الأخلاق . فجاء تعريفه للأخلاق تعريفاً محكماً يقول فيه:

الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر و روية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة والمحمودة عقلا وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها من الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً[3].

ولا نبعد كثيراً عن الحقيقة إن قلنا إن الأخلاق هي الأساس المتين الذي يقوم عليه لب التصوف ، ولقد صدق بعض الصوفية حين قصروا التصوف على الأخلاق ، وعرفوا التصوف بأنه : الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني [4].

ويقول سهل التستري: من لم يدخل فيما بينه وبين الله على مكارم الأخلاق لم يتهن بعيشه في دنياه وآخرته[1] .

1 / ابن تيمية : الفتاوى ، ج : 10 ، ص : 552.

2 / الغزالي ميزان العمل ، ص : 50.

3 / الغزالي : الإحياء ، ج : 5، ص :53.

4 / عبد الكريم القشيري ، الرسالة ، ص : 217.

لقد عمل الغزالي على تقديم الأخلاق بأسلوب رائع يدعو للدهشة والإعجاب ، لاسيما وأن الأخلاق في العقيدة الإسلامية تغطي الحياة بكاملها ولا تدع مجالاً من المجالات إلا وكان لها فيه القدح المعلى.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا ، لماذا هاجم الغزالي الفلسفة والفلاسفة ، واستحسن طريق التصوف وفضله على سواها من طرق المعرفة ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يقول الغزالي:

فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأن أحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ... وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما احتويته من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته من طريق أهل التفلسف ، وما ارتضيته من طرق أهل التصوف .

من الملاحظ في هذا الكلام أن الغزالي قد مر بمراحل متباينة وطرق مختلفة لاكتساب المعرفة ، فقد بدأ أول أمره مقلداً ، ثم انتقل إلى تعلم علم الكلام ، ومن بعده إلى الفلسفة ، وأخيراً أنزل رحاله بباب التصوف الذي هو خاتمة المطاف عنده في اكتساب المعرفة الحق ؛ لأنه كان يبحث عن العلم بحقائق الأمور ، وحقائق العلوم التي تنكشف للعقل انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يدانيه الوهم أو الخطأ ؛ فكل علم لا أمان معه ليس بعلم يقيني ولا ثقة فيه ، لأنه قابل للشبهة ومعرض للدحض . إذن فالغزالي يبحث عن اليقين الذي لا تشوبه شائبة من الوهم ، ولم يجده في جميع تلك العلوم الحسية ولكنه وجده في التصوف ، الأمر الذي يؤكد أن هناك مراتب ومراحل لتلقي العلم واكتساب المعرفة ، فالعلم يُتعلم بواسطة الحواس ويؤخذ من الآخرين بينما المعرفة تكتسب بالمجاهدة والطلب بشك ذاتي وهذا هو ما فعله الغزالي . فبعد أن طالع جميع العلوم وجد أنه عاطل من المعرفة ؛ لأن المعرفة لا تُمنح ولكنها تكتسب إذا بُذل

1/ محمد كمال إبراهيم جعفر : فلسفة الأخلاق ، ص :273.

الجهد في سبيل الوصول إليها ، ولكن ما السبيل إلى تحصيل المعرفة اليقينية ؟ لابد أن ثمة طريقاً يمكن الإنسان من بلوغها ، وأخيراً وجد الغزالي ضالته في التصوف .

كان التصوف هو طوق النجاة الذي تعلق به الغزالي ليخرج من حالة الضلال والتوهان التي اعترته منذ وقت غير قصير، فكانت الصوفية هي الملاذ والملجأ والحصن الحصين الذي تحطمت أمامه موجة الشك في نفس الغزالي التي كانت في أمس الحاجة إلى تهذيب النفس وتزكيتها ، ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ السبيل واضح إلا أنه شائك وغير سالك إلا على أولي العزم والصبر والإصرار، وكان الغزالي أحد أولئك القوم فسلك طريقهم ألا وهو رياضة النفس وإعدادها للسمو الروحي بواسطة العزلة والخلوة والمجاهدة بالذكر والصلاة وأداء كل الفرائض والواجبات التي توجبها العقيدة في الدين الإسلامي.

ولكن الغزالي آثر العزلة حرصاً على الخلوة التي تساعد على تصفية القلب للذكر ، وعلى الرغم من أنه كان كثير المشاغل إلا أنه لم ينقطع عن العزلة من وقت لآخر مفضلاً إياها على الاختلاط بالناس . ويقول في ذلك : ... وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها أو استقصاؤها ، والقدر الذي ينبغي تذكره لينتفع به أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم هي أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جُمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع ليغيروا أشياء من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ؛ لأن جميع حركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالجملة ماذا يقول القائل في طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحرم في الصلاة واستغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى[1] .

1 / الغزالي / الإحياء ، ج :5 ، ص :12.

هذا هو السبب الذي جعل الغزالي يختم طريق المعرفة لديه بالتصوف ، التصوف القائم على الكتاب والسنة ، والذي لا يحيد عن طريق الشرع قيد أنملة ، الأمر الذي فتح له الطريق إلى معرفة الله تعالى حق معرفته ، تلك المعرفة التي لا توجد معرفة توازيها ولا ريب ولا شك يدانيها ؛ وعلى الرغم من أنها تقوم على الشعور والأحاسيس القلبية إلا أنها لا تلقي العقل بل تجعل منه وسيلة تعين القلب على بلوغ مراده السامِ ، وقد عبر الله تعالى عن حقيقة الإنسان ومعناه في كثير من آي القرآن العظيم بالقلب وفي بعضها باللب وفي بعضها الآخر بالفؤاد ، والواقع أن (القلب) هو (اللب) وهو الروح التي نفخها الله تعالى فيه من روحه ... ، وهذا القلب أو اللب هو الذي يتغذى بالتفكر والتدبر في قدرته . جلَّ وعلا . على إبداع هذا الكون العظيم ، في حكمته وعدله ورحمته وبره وفضله الذي شمل الكائنات جميعها. وهذا القلب هو في حاجة دائمة للغذاء ليس هو بالطعام أو الشراب ، ولكنه غذاء روحي يشتمل على السرور والفرح واللذة والابتهاج والعلوم والمعارف ، وبهذا الغذاء يصبح اللب سماوياً علوياً متعلقاً بالله وبالطاعة ،لا يملك من أمره شيئاً عندما أسلم مقوده لخالقه يحدوه الشوق إلى لقاء ربه ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا[1].

هذا هو التصوف الذي ملك على الصوفية جميع حواسهم ومشاعرهم فطاروا إلى الله بكل جوارحهم ، فغرقوا في بحار محبته لا يعملون إلا لله ولا ينظرون إلى سواه . فكان الغزالي على رأس أولئك القوم (رضي الله عنه وأرضاه) ، غاص في بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعاني ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساتين العلوم فاجتنى ثمارها، وسعى في إحياء علوم الدين فشكر الله له ذلك المسعى ، فلله دره من عالم مجيد .

هيهات لا يأتي الزمان بمثله * إن الزمان بمثله لشحيح

لقد طرح الدنيا الفانية وسعى إلي الآخرة الباقية بقلب واع ونفس زكية ، قال . صلى الله عليه وسلم . :(إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل

---

1 / ابن القيم : مدارج السالكين ، ج : 2 ، ص : 412.

مائة سنة) وفي هذا الحديث يقول الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر :إنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر البقلاني رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه [1].

السماع عند الصوفية

للصوفية أدلتهم في تحليل السماع ، والمأخوذة من السنة من ذلك مثلاً أن النابغة الشاعر قد أنشد عند رسول الله قصيدة قال فيها :

ولا خير في حكم إذا لم يكن له * بادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في أمر إذا لم يكن له * حكيم إذا أورد الأمر أصدرا

قال له رسول الله صلى الله عليه وسام :(أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك)[2].

وهناك القصة المشهورة عن الشاعر كعب بن زهير الذي هجا الرسول الكريم، عليه أفضل صلاة وأتم تسليم، ثم إرعوى وثاب إلى رشده وجاء معتذراً بقصيدته المشهورة والتي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلت* إلا أغن قضيض الطرف مكحول

حتى بلغ قوله :

وما محمد إلا رسول مهند * من سيوف الله مسلول

فكساه الرسول (عليه صلاة الله وسلامه) بردته التي كان يلبسها ، والتي اشتراها منه معاوية ابن أبي سفيان وما زالت الخلفاء تتوارثها حتى العهد العثماني، من هذه الروايات وغيرها من الروايات التي تؤكد أن الرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام)

---

1 / المرجع السابق ، ص : 9.

2 / الغزالي : الإحياء ، ج : 5 ، ص : 110.

قد سمع الشعر واستحسنه وأجاز عليه، استحل الصوفية السماع للإنشاد وجعلوا منه زينة لحلقات الذكر لديهم.

أما خصوم الصوفية فيرون في السماع غير ما يراه أولئك وينكرون عليهم ذلك المسلك الذي يصفونه بالشناعة والخلاعة المنافية للآداب والأخلاق ؛ لأنه ينبئ عن تشابه بين المجون كسلوك يسلكه أصحاب مجالس شرب الخمر ؛ ولذلك فهو معدود في النواقص التي تزري بالمرء وتقلل من هيبته ومكانته. هذا ما كان من أمر السماع ، أما الحركات (الرقص) التي تتبعه عند اشتداد الطرب فهي مكروهة ومبغضة عند غير المتصوفة بل وتصل إلى درجة التحريم عند الكثير من العامة والخاصة ، لما فيها من اللهو والفجور الذي لا يليق بالرجال وخاصة الكبار. سنا ومكانة . منهم. بينما يرى الصوفية أن تلك الحركات تفتح الباب للتعبير عن دواخل النفس والتنفيس عن الجسد.

ربما كان من السهل الرد على كثير من النقد بحجة بينة وواضحة ، خاصة وأن كثير من النقد الموجه للتصوف لا يخص الصوفية الحقيقية ، أو المنهج الصوفي. وإنما النقد كان في حقيقته موجه إلى التصوف الفلسفي ، أما التصوف السني فقد لاقى شيئاً من الإشادة أو الاعتراف بفضله بحكم ارتباطه بالسنة ؛ حيث نجد ابن خلدون يلتمس للصوفية بعض العذر باعتبارهم أهل غيبة عن الشعور بالواقع الذي يدور من حولهم ؛ وذلك عند ما يكون الصوفي في حالة جذب سماوي ، مما يعني أنهم غير مسئولين عن ما يقولونه في تلك الحالة التي تعتريهم [1].

لقد أقام خصوم الصوفية نقدهم على الآتي:

. أولاً: النظريات الفلسفية: انصب النقد على التصوف الفلسفي وعلى شيوخه : الحلاج ، ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض ...، وتحديداً كان الهجوم على تلك النظريات أو الأفكار التي استجلبت أو اقتبست من الفرس والهند واليونان وغيرهم (الحلول، الاتحاد ، الفناء). فالاتحادي يشاهد وجوداً واحداً جامعاً لجميع الصور

---

1 / ابن خلدون : المقدمة ، ص : 475.

والأنواع والأجناس ... وذلك الشهود يؤدي به إلى عدم التقيد بمعبود معين ، أو حتى عبادة معينة ... فلا فرق عنده بين السجود للصنم أو الشمس والنجوم وغيرها[1].

. ثانياً: البدع :البدعة هي الأمر المستحدث في الدين ، وقد ظهر الكثير من البدع لدى الصوفية من ذلك مثلاً : تقديس الأولياء ، وزيارة قبورهم وتقديم النذور بقصد تحقيق المقاصد الدنيوية أو الأخروية وهي أمور ينكرها الشرع وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)[2].

. ثالثاً : إسقاط التكاليف : من المعروف عند بعض الصوفية الذين أسقطوا التكاليف الشرعية التي تنبني عليها أركان الدين الحنيف كالصلاة والحج والزكاة وغيرها من الفروض والواجبات . ينسب إلى رويم الصوفي أنه قال : كل الخلق قعدوا على الرسوم (العبادات الشرعية) وقعدت هذه الطائفة (الصوفية) على الحقائق ، وطالب الخلق أنفسهم بظواهر الشرع وطالب هؤلاء أنفسهم بحقيقة الورع والصدق ، فمن قعد معهم وخالفهم في شئ مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه[3].

. رابعاً:استباحة المحرمات : لقد استباح بعض الصوفية المحرمات التي حرمها الدين بنصوص محكمة من القرآن العظيم كشرب الخمر بهدف الوصول إلى حالة الفناء أو الاتحاد.

. خامساً: المنامات: وهي تلك الرؤى التي تعرض للنائم أثناء نومه (الأحلام) ، ولكن الصوفية جعلوا منها إشارات ، وصاروا يفسرونها على هواهم .

. سادساً: التواجد : وهو الرقص الذي يصحب الألفاظ التي يرددها الصوفية في أذكارهم ؛ لإرهاق الجسم حتى يبلغ درجة من التعب تمكنهم من الوصول إلى حالة الفناء الروحي ، وهي حالة وجدانية يفقد الصوفي فيها الشعور والإحساس بالواقع.

---

1 / ابن القيم : مدارج السالكين ، ج : 3 ، ص : 242.

2/ صحيح ابن خزيمة ج3/ص143.

3 / عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية ، ص : 127.

. سابعاً: الكشف : وهو أمر يتعلق بمعرفة الغيب أو معرفة العلوم من دون واسطة ، فالصوفي يرى أن الحجاب مرفوع عنه مكشوف له الاطلاع على الأمور الخافية على سواه ؛ لأنه يتلقى عن الله مباشرة.

هل هناك من فرق بين الضلالات والشطحات ؟ وما المقصود بالشطح الصوفي ؟.

نقول يوجد فرق بين الضلال والشطح سواء أكان ذلك على مستوى اللغة المعجمية أو على مستوى المعنى الاصطلاحي ، فالشطح كما يعرفه أصحاب المعاجم والقواميس اللغوية هو: شطح في السير أو القول : تباعد واسترسل. والشطحة : يقال لفلان الصوفي : له أحوال شاطحة[1]. أما الضلال فهو: الهلاك ، الباطل ، العدول عن الطريق المستقيم عمداً أو سهواً . وفي اللسان[2] : الضلال والضلالة : ضد الهدى والرشاد: (قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ۝٥٠) **سبأ: ٥٠.** أما الضلال بمعناه الاصطلاحي فهو

يعني الخروج عن الحق أو الرشد والهدى ؛ وقد جاء في تفسير قوله تعالى: (أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٠٨) **البقرة: ١٠٨** في تفسير الجلالين

: أخطأ طريق الحق . وفي تفسير القرطبي : ذهب عن قصد الطريق وسمته ، أي طريق طاعة الله. وفي تفسير الطبري : هي الصراط المستقيم. وفي تفسير ابن كثير : فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال. و في تفسير قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ۝١١٦) **النساء: ١١٦.** يقول تفسير الجلالين: ضل عن

---

1 / المعجم الوسيط مادة : (ش ط ح).

2 / لسان العرب ، مادة : ض ل ل .

الحق. والقرطبي : كل من خالف طريق المسلمين والهدى والرشد والبيان . وابن كثير والطبري : ذهب عن طريق الحق.إذن فالضلال هو أن يحيد الشخص عن الصواب بأي شكل من الأشكال أي أن يبتعد عن الهدى والرشاد.

والشطح يعني : إبراز المعنى المستشعر داخلياً ووجدانياً من القلب إلى اللسان من دون قرينة عقلية واضحة تبين صدق ذلك المعنى المشار إليه ، أي أنه أقرب إلى الرمز أو الإشارة.

وقد ظهر الشطح في كثير من أقوال وأفعال الصوفية ، وهو من الأبواب التي جلبت عليهم كثير من السخط ، سواء أكان من الفقهاء أم من العلماء.

وهنا نورد بعضاً من التعريفات التي ذكرت عن الشطح هو :

. كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه ، مقرون بالدعوى.

. هو: عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه .

. هو: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى ، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب ، وهو من زلات المحقين ، فإنه دعوى حق يفصح بها العارف ولكن من غير إذن إلهي.

. هو : دعوى يفصح عنها المتصوف ، بعبارة مستغربة مطربة في الغالب [1].

من الواضح هنا أن جميع تلك التعريفات السابقة ، تجتمع في أمر واحد هو أن الشطح يصدر عن الصوفي من غير إرادة منه ودون أن يتمكن من كبح جماحه والسيطرة عليه ؛ لأن هذا الفعل أو القول الشاطح يكون دائماً في أوقات يفقد فيها الصوفي الوعي ، إما بالتفكر والتفكير المتعمق في الله تعالى ، أو عند ما يكون الصوفي في حالة من حالات الذكر فيصدر عنه ما لا يملك له دفعا فهو في حالة (وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه) ودعوى تصدر من أهل المعرفة باضطرار... وهو من زلات اللسان التي تصيب الصوفي عندما يتعلق بالله وتعتريه الانفعالات

1 / محمد عابد الجابري : بنية العقل العربي ، ص : 288.

الوجدانية فيشعر بأنه في حالة توحد أو اتحاد مع الذات العليا ؛ عندها ينطق لسانه بما في عقله الباطن دون أن يدري بشئ من أفعاله وأقواله .

وخلاصة القول فالفرق بين اللفظين أو المصطلحين يكمن في أن الضلال يأتي بشكل غير مقصود أو متعمد ويمكن للشخص الضال أن يهتدي ويثوب إلى الرشد والهدى .

أما الشطح هو إصرار على الخروج عن الصواب بصورة مبالغ فيها ، مع عدم التفكير في الرجوع عن الخطأ مهما بلغ الأمر. ويكون بذلك الضلال أخف وطأة وأقل خطراً من الشطح ؛ لأنه لا يكون بإصرار من صاحبه ولكنه قد يكون سهواً أو نسياناً يعود بعده الشخص إلى سبيل الهدى والرشاد.

ومن النماذج الشطحية التي لا تخفى على الأذن ما جاء على لسان أبي يزيد البسطامي . وهو في حالة من عدم الوعي . فقال: (سبحاني ما أعظم شاني) وقال: (كنت لي مرآة فصرت أنا المرآة) وقال: (طاعتك لي يارب أعظم من طاعتي لك) ومن أقواله: (رفعني الله مرة فأقامني بين يديه وقال: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك . فقلت : زيني بوحدانيتك ، وألبسني أنانيتك ، وارفعني إلى أحديتك ، حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك ، فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك) ويقول أيضاً:(أول ما صرت إلى وحدانيته فصرت طيراً جسمه من الأحدية وجناحيه من الديمومة ، فلم أزل أطير في هواء الكيفية عشر سنين حتى صرت إلى هواء مثل ذلك مائة ألف مرة. فلم أزل أطير إلى أن صرت في ميدان الأزلية فرأيت فيها شجرة الأحيدية ، ثم وصفت أرضها وأصلها وأعضاءها وثمارها ... فنظرت فعلمت أن ذلك كله خدعة)[1].

فأبو يزيد البسطامي يمثل نموذجاً واضحاً في هذا المضمار (الشطح الصوفي) ولا يستطيع أحد من الصوفية أن يجاريه في هذا الميدان ، غير أن هناك كثير من الأفكار التي توضح شطحات الصوفية وهي منتشرة بين أضابير كتبهم ومؤلفاتهم التي

1 / المرجع السابق ، ص : 289.

خلفوها من بعدهم ، فهذا هو عمر بن الفارض . سلطان العاشقين ومن كبار شعراء التصوف . يقول[1]:

إن خر للأحجار في البيد عاكف * فلا تعدُ بالإنكار بالعصبية

وإن عبد النار المجوس وما انطفأت * كما جاء في الأخبار مذ ألف حجة

فما عبدوا غيري وما كان قصدهم * سواي وإن لم يظهروا عقد نية

ويقول أحد شيوخ الصوفية الكبار، محي الدين ابن عربي، في كتابه الفصوص: واعلم أن للحق في كل معبود وجهاً. يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله ، فالعارف يعرف من عبد، وفي أي صورة ظهر: (۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾) **الإسراء: ٢٣.** كذلك للصوفية شطحات غير قليلة في تفسيرهم لآي القرآن العظيم، وهو ما يسمى بالتفسير الباطني أو التفسير الاشاري، وهو مرفوض عند أهل السنة جملة وتفصيلا، سواء أكان تفسيراً مال إلى شئ من الاعتدال أو ذلك النوع من التفاسير الشاطحة، ونقدم هنا نماذج تبين مدى شطح أولئك المفسرين الشاطحين في تفسيراتهم الناجمة عن فهم غريب للقرآن العظيم، دون أن سند أو دليل إلا ما دار في خلدهم من شعور غامض لا يفهمه إلا مفسره أو قائله؛ لأن التفسير الباطني لا يقوم على المنطق العقلي السليم وإنما ينبني على ما يحس به العارف من معنى يستشعره القلب من غير ضابط ولا رابط ودون خضوع لرقابة أو تنظيم عقلي[2] .

يعد تفسير القشيري (لطائف الإشارات) من أكمل التفاسير الصوفية للقرآن العظيم . ومن هذا الكتاب نقدم بعض النماذج للتفسير الصوفي ، يقول القشيري في تفسير قوله تعالى:

---

1 /.ديوان عمر بن الفارض . ص: 16.

2 / المرجع السابق : 243.

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣) **البقرة: ١٤٣.**

الوسط : الخيار فجعل هذه الأمة خيار الأمم وجعل هذه الطائفة (الصوفية) خيار هذه الأمة ، فهم خيار من خير، فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة فهذه الطائفة (الصوفية) هم الأصول ، وعليهم المدار ... وبهم يحفظ الله جميع هذه الأمة، ومن المؤكد أنه ليس للقشيري من دليل إلا شعوره أو إحساسه الخاص. ويعد محي بن الدين بن عربي من أبرز متصوفي الباطنية المؤمنين بالتفسير الاشاري الباطني حيث يمكن ملاحظة ذلك من خلال كتابه (الفتوحات المكية) ، والذي يعد واحداً من كتب التفسير الباطني والكتاب يظهر مدى تحيز ابن عربي للباطنية ضد الفقهاء (علماء الظاهر) ويتضح موقفه من الفقهاء في قوله : ... وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم، على أهل الله، المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسراره في خلقه ، وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه ... ولما كان الأمر على ما ذكرناه عدل أصحابنا إلى الإشارات ... فكلامهم رضي الله عنهم في شرح كتابه العزيز إشارات ... وردّ ذلك كله إلى نفوسهم. ويتجلى الانحياز بصورة جلية عندما يقوم بتفسير قوله: (سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣) **فصلت: ٥٣.**

فيعمد إلى صرف معنى الآية إلى أهل الله (الصوفية) ؛ وذلك عندما يقول: لكل آية منزلة وجهان وجه يرونه (العارفون) في أنفسهم ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم ، فيسمون ما يرونه في أنفسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ، ولا يقولون في ذلك أنه تفسير وقاية لشرهم(الفقهاء).

ومن البين أن ابن عربي قد شطح في تحويل أو صرف معنى الآية إلى الصوفية العارفين مظهراً إياهم وكأنهم هم الذين يملكون الحقيقة وحدهم ودون سواهم ، فلا أحد يعرف سر الآيات القرآنية غير الصوفية في هذا الكون. وفي هذا تجن واضح على الآخرين من أهل العلم والمعرفة الذين يعتمدون في معارفهم على العقل الذي يستمد معارفه عبر الحواس ، أما الصوفية فهم يعتمدون في اكتساب علومهم على الحس الذوقي أو الخواطر القلبية التي تهبط على القلب من الله مباشرة ودون واسطة ، وهي ما يسميه المتصوفة بالإلهام الإلهي أو الفتح الرباني ؛ حتى أن الزركشي يقول عن ذلك النوع من كلام الباطنية : فأما كلام الصوفي في تفسير القرآن فهو ليس بتفسير ، وإنما هي معان يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾) **التوبة: ١٢٣**. إن المراد بالذين يلونكم , النفس فأمرنا بقتال من يلينا لأنها أقرب شئ إلينا ، وأقرب شئ إلى الإنسان نفسه[1]. وفي تلك الآية يقول القشيري : أقرب الأعداء إلى المسلم من الكفار الذي تجب عليه منازعته هو أعدى عدوه أي نفسه. فيجب أن يبدأ بمقاتلة نفسه ثم بمجاهدة الكفار. ومثل هذه الأقوال هي مما يخدم التفسير الباطني أو ما يسميه الصوفية بالإشارة ، والذي وإن كان مقبولاً بعض الشيئ إلا أن فيه ما يشير إلى الخروج عن القواعد المألوفة ، حيث أن معنى اللفظ (الكفار) في الآية ينصرف مباشرة إلى المعنى الحقيقي وهو الكفار أو المشركين الذين يقاتلون الرسول الكريم، عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم، (ر ض) ، ولا يظنن ظان أو يعتقد معتقد أن هناك معناً غير ذلك ، وإلا كان في هذا لي لعنق الحقيقة ، وربما كان من الأجدر بأولئك الصوفية أن يكتموا مثل تلك الشطحات أو الإشارات ، حتى لا يتهموا في دينهم ويُرمون بالكفر والفسوق والزندقة وكل ما هو قبيح وشنيع من التهم.

1 / بدر الدين محمد عبد الله الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج : 2 ، ص : 171.

وقد سبقت منا الإشارة إلى أن الصوفية يجعلون لكل آية من كتاب الله العزيز ظاهراً وباطناً الأول لأهل الرسوم (الفقهاء) والآخر يختص به الصوفية دون سواهم ، وهم يعتمدون في هذا التصنيف على مقولة وردت عن علي بن أبي طالب (رض) يقول فيها: (ما من آية قرآنية إلا ولها أربعة معان : ظاهر وباطن وحد ومطلع) . وهذا هو عميد التصوف السني (الحارث المحاسبي) يشرح تلك المقولة بما يتناسب وأفكار الصوفية , فيقول : أما ظاهرها فتلاوتها، وأما باطنها فتأويلها , وأما حدها فمنتهى فهمها، وأما مطلعها فمجاوزة حدها بالغلو بالتعمق والفجور والمعاصي. كذلك يروي السلمي في تفسيره الصوفي لتلك المقولة: ... فظاهرها التلاوة ,والباطن الفهم ، والحد أحكام الحلال والحرام ، والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها. أما ابن عربي فيجعل من تلك المقولة حديثاً نبوياً يزعم أنه تلقاه من النبي عن طريق الكشف فيقول : قال النبي، دون أي واسطة أو عنعنة، : (ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حد ومطلع) ثم يضيف : وفهمت منه (النبي) أن الظهر هو التفسير ، والبطن هو التأويل، والحد هو ما يتناهى له الفهم من معنى الكلام ، والمطلع ما يصعد إليه من فيطلع على شهود الملك العلام. ويعتمد الصوفية في إثبات أفكارهم الباطنية على أحاديث ينسبونها إلى النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من تلك الأحاديث: (إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن) [1].

ـ في الختام:

لقد عملت هذه الدراسة على تقريب وجهات النظر المتنافرة عن التصوف كسلوك تعبدي يرمي السالك، من خلاله، إلى التقرب إلى الله، تعالى، بعد أن تذوق حلاوة الشعور التعبدي والقرب من الحق؛ الأمر الذي يجعله في شوق دائم لا ينقطع إلى لقاء الحبيب في خلواته، حتى قال قائلهم: " نحن في لذة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف". وكان أبو حنيفة رحمه الله إذا أخذته هزة المسائل يقول: أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليه. وقيل: من خلا بالعلم لم توحشه الخلوة،

1 / محمد عابد الجابري : بنية العقل العربي ، ص : 276.

ومن تسلى بالكتب لم تفته السلوة. وقيل لابن المبارك: من تجالس؟ فقال: أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، إني أنظر في كتب آثارهم وأخبارهم[1].

. نتائج الدراسة:

- يصعد الصوفي سلم العبودية ويرتقي في مراتبها؛ إلى أن يبلغ درجة المكاشفة. فهو يرتقي في أول أمره بالرياضة والمجاهدة ليصل إلى أسما درجات الصفاء الروحي مع الله تعالى.
- إن الله، تعالى، يتفضل على عبده المخلص فيسبق عليه من النعم ما يجعله لا ينظر إلى شئ إلا ورأى فيه الجلال والكمال الإلهي متجلياً في أسما صوره وأروع تجلياته.
- اليقين هو الخطوة الأولى للدخول في سبيل الخاصة والخروج من العامة، وهي مرتبة لا يصلها العابد السالك إلا بشق الأنفس.
- ثم تأتي مرتبة عين اليقين، وهي درجة من درجات المشاهدة اليقينية وهي بمثابة رؤيا العين المجردة لدى الإنسان، إلا أنها أمور تتعلق بالقلب عند ما يفتح الله بصيرة عبده فيرى ما لا يراه الآخرون؛ لأنه يرى بنور من الله وبصيرة منه.
- أما الدرجة الأخيرة من درجات اليقين فهي درجة حق اليقين، وعندها تسقط الحجب والستور، حيث إسفار الصبح والكشف، والخلاص من منزلة اليقين. وهي منزلة لا يمنحها الله تعالى إلا للرسل[2].

1/ الحسين بن محمد بن الفضل (الراغب الأصفهاني): محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ص: 39. من موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول (www.arpoetry.com).

2 / ابن القيم : مدارج السالكين ، ج : 2 ، ص : 404.